أحمد بن إدريس البجائي الأيلولي
(القرن 8 هـ / 14 م)
ودور زواوة في التراث العربي الإسلامي

أحمد ساحي

لا ينكر دارس منّا أن أعظم الناس أقلُّهم ذكرا في تاريخنا أحياءً كانوا أم شهداء القلم والفكر. وهذا يصدق على الكثير من أعلامنا وشخصياتنا عبر مختلف الأحقاب بما فيها الحديث والمعاصرة.

من هؤلاء المظلومين المضطهدين ثقافيا... أحمد بن ادريس، ورغم احتلاله حيزا متواضعا، متواترا في الذكر فإنه لا يكاد يشذُّ عن قاعدة الاحتشام، ويتراوح بين بضع سطور وتعابير مقتضبة إلى مجرد ذكر في الأمهات والموسوعات والمختصرات على السواء.

ومن جراء هذا الفراغ المتوارث، نكاد لا نعثر على الكثير أو القليل حول حياة أبي العباس ابن إدريس، لا سيما ما يتصل بمولده، ونشأته، مكانا وزمانا. فكل ما نصادفه مجموعة مجموعة نعوت حول الرجل العالم والمفتي البجائي، أمام المغرب تارة وطورا كبيرا بجاية وتونس ومصر وزواوة. ويستوي في العلم حوله الفلاح والعالم، وهي الظاهرة التي أوحت لأحد الباحثين بنعت (يحي العيدلي) الشهير هذا الرجل المجهول عند ترجمته له.

إننا لا ندعي علم الأولين، إذا قلنا بأن ترجمة أبي العباس ابن إدريس، هي في حد ذاتها تاريخ وإعادة كتابته لأحد العهود الرعناء من تاريخ بجاية وزواوة والمغرب كله خلال القرن 14م. وتظل سارية هدينا خلال هذا الجهد جملة مصادر ومراجع ورواية محلية أثرى من النّص المكتوب دائماً...! وقد رمزنا لها برقم عند الإحالة في

ملحق تفاديا للإطالة والتكرار.

إن الفضل كل الفضل يعود لطالب ابن ادريس عبد الرحمان ابن خلدون الذي ذكره مراراً في الجزء السابع من كتاب العبر. ومن جملة ما سجّله في حديثه عن القاهرة:

«سألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير بجاية كيف هذه القاهرة؟ فقال: كأنما انطلق أهلُه من السحاب.. يشير إلى كثرة أهله وأمنهم العواقب»..

وبهذا المقطع الهام ينير ابن خلدون أمامنا جانبا من حياة ابن ادريس، إذ يصرح بأنه شيخُه، ثم يفيدنا بأنه عرف القاهرة وأقام بها وربما درَس من السحاب... كما يتضمن تعبير ابن خلدون «من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجُّهم وتاجرهم... لقاءه حاجاً، أو هو في طريق العودة من الحج.

نشأة ابن إدريس وموطنه الأول:

ترى! أين درس أحمد بن ادريس دراسته الأولى! السؤال يشمل أيضا مولده وموطنه الأول، ومختلف التطورات الهائلة التي لاقاها أحمد بن إدريس وحركته بقدر يتراوح بين البلاء والإمتحان؟..

ولا عذر لنا أمام قصور التاريخ المكتوب في رفض اللجوء إلى الرواية الشعبية الكثيرة حول الأسرة وحول والد المترجم له. إنها تكمل الرواية المكتوبة منذ الغبريني الذي يدعم نَصُّه الرواية بذكر **إدريس ابن محمد (والد) المترجم له**، وقد عاش في قرية **أفوسيم (كسيمة أو كسيمة) بإيلولة أومالو**، مع شيخ القرية وجدها المرابط على (الكوسيمي) وهذا ما يعكسه شعاع من التاريخ المكتوب. نص للغبريني من كتاب عنوان الدراية، ترجم فيه لأسرته ولأخيه، وهو الدليل المكتوب الحجة، بأسلوب اخباري عن معايشة واحتكاك.

يذكر فيه الدراسة الأولى له على شيخه أبي الحسن علي بن محمد البتورغي في (المكتب) ويعرفنا أن ذلك حدث فيما بين 650/644هـ إذا سنّ الأولى هي ست

سنوات.. وبذكره (المكتب) تأكد لدينا أن **الزاوية** لم تنشأ في عهده بزواوة، ولم يكن قد أطلق عليها مصطلح (**المعمرة**). كما أن المكان هو مدفن أحمد بن عبد الله **بوادي (ايخذاشن) الحدود بين قبائل إيلولة ويتورغ وإيليتن.**

أهم روافد سباعو.. ما يتضمنه تعبير الغبريني (بموضع سكناه منها) أي من بني يتورغ... وهنا نسعف بالرواية المتوارثة لتكمل

إدريس بن محمد بن عبد الله:

الجانب الخفي في النص، تدعمها العينات المادية والمسح الميداني وهي كلها تضيئ الجواني المسكوت عنها، ذلك أنها تذكر انتقال **كل من أبي الحسن علي وأبي علي الكوسيمي وإدريس بن محمد** من مكتب أحمد بن عبد الله قبل 683هـ. وقد ذكر أبو العباس أحمد بن القاضي الغبريني ملامح من شخصية شيخه (أبي الحسن علي) ومقامه ووفاته وأولاده... بينما تتكفل الرواية المحلية بتسجيل أن **إدريس والد أحمد**، عاصر وعاش مع أبي الحسن علي وأخيه على الكوسمي بالقرية المذكورة، والتي ما تزال بها عين ماء تسمى (**عين وادريس**) أي إدريس بن محمد بن عبد الله، كما توجد بالقرية (همرة) ذات مرافق هامة تأسست بعد تمدرس الغبريني بالمكتب 650هـ، وحيث يملك الأخوة (جنيتة) وحقوق الأعشار على الرحى المائية هناك.

وحسب التسلسل الوارد في كتاب البستان (لشجرة أحمد بن إدريس. فإن أبا الحسن علي بن محمد (اليتورغي) وعلى الكوسيمي وإدريس بن محمد، ثلاثتهم إخوة ينحدرون من محمد بن عبد الله بن عيسى بن موسى بن إبراهيم بن خالد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن إدريس... وهذا يترجم قول ابن خلدون «ولا تزال منهم (الإدارسة) بقايا في الأطراف والجبال، لدى البربر قبل 790هـ

أدارسة زواوة وبجاية:

وقد ألح صاحب كتاب النسب أن أهل بجاية والصحراء جدهم محمد بن عبد الله وهم أخوة (أحمد بن إدريس) دفين جبل زواوة (إيلولة أومالو) وعندما ترجم لأبي عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي المعروف بالجزائري وأكّد (حفيد الفقيه الجليل (أبي عبد الله الإدريسي) شيخ الغبريني ورئيس كتبة الديوان ببجاية قبل

704هـ وهذا يخلد مكانة الإدريسي في النصف الثاني في القرن 7هـ في بجاية بعد الانتقال إليها من المقام الأول. ولا نعتقد أن الفقيه الكبير شخص غريب عن إدريس بن محمد بن عبد الله .

ومع أننا لا نعرف ضريح محمد بن عبد الله، كما نعرف ضريح أحمد بن عبد الله، إلا أن الدكتور يحي بوعزيز ربما يكون قد أكمل هذا القصُور بذكره محمد بن عبد الله الجعافرة التي يكون قد هاجر إليها من زواوة وخلف بهما ذرية. يعد ورود ذكر له بجاية

وعندها يكون أحمد بن إدريس بدوره قد مرّ وأقام بجعامزة وبني يمل (أية يمل)بعد العصر البجائي حسب الرواية المحلية التي يدعمها النص التاريخي حول الفقيه الجليل بقرابة 40 سنة.

وقد اهتمت الرواية نفسها بأحمد بن إدريس لدى بني يحل في رمزية جدّ معبّرة، ملحين على رفقته أو بقائه بين ظهرابيهم عندما عزم الرحيل إلى الربوع اليلولية.

آل القاضي وأبناء محمد عبد الله:

غير أن هذه الرواية لم تكتف بترويد هذا المقطع المعبّر في حياة ابن إدريس، بل أنها ربطت بين آل القاضي الأمراء وآل إدريس العلماء، وأشارت إلى شخصية (محمد بن القاضي) مع أحمد بن إدريس، بالرغم من التباعد الزمني بين الشخصيتين.

وهذا يؤكد أن العلاقة والرابطة بين الأسرتين كانت قائمة منذ أن درس الغبريني (ابن القاضي) بمكتب أحمد بن عبد الله بزواوة، رواية يدعمها وجود **ضريح بنفس المقام** لإحدى الشخصيات الملكية في (**تفيلكوت**) غير بعيد من المكان السابق، وفي قرية (**تيزيت**) بنفس الربوع يوجد فرْع (أصلي) من آل القاضي الأمراء.

يعتري حياة المترجم له بعهد طويل شحوب ناتج عن سكوت التاريخ وعن التنقل وعدم الإستقرار، شأن العلماء والعظماء في القرن 8 هجري، لولا إشراقة شمس رجل عاصر أحمد إبن إدريس وتتلمذ عليه، فكتب عنه وعن تاريخ بجاية وزواوة وكامل المغرب.

وبالرغم من أن الحلقة المتصلة بالشيخ أبي العباس بن إدريس واحدة من أخواتها في سلسلة الأحداث والملمات والوقائع التي أجملها صاحب كتاب العبر عهد أبي الحي المديني ومجلسه العلمي حيث قال:

«وكان قدم علينا (748هـ) في حملة السلطان، أبي الحسن عندما ملك إفريقية جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم شيوخي..

ويضيف «وفي فاتح 749هـ كانت واقعة القيران على السلطان، أبي الحسن أوقفها الطاعون الجارف وثار أهل تونس يقودهم إبن تافراجين (تافراكين) ولكن أبا الحسن نجا إلى سوسة ثم ركب البحر على أسطوله... ولم يذكر من بين ضحايا تونس أو الطاعون أو الثورة شيخه أحمد إبن إدريس، رغم تأكيده بوفاة معظمهم، وترجمته لأكثر من عشرة من شيوخه قضوا في الطاعون الجارف أو في الزوبعة البحرية التي ضربت الأسطول المريني... وسكوته عن أحمد بن إدريس دليل على نجاته من كل ما تقدم.

العلامة أحمد إبن إدريس في المصادر العربية:

كثيرة هي تلك المصادر التي ذكرت أحمد ابن إدريس، في تعابير تتردد من نص إلى آخر مثل الديباج ونيل الإبتهاج والبستان وشجرة النور الزكية والورتلاني وغيرها، وهي تذكر من بين تلامذته:

- عبد الرحمن ابن خلدون 732هـ /806هـ.
- عبد الرحمن الوغليسي المتوفي 786هـ.
- ابن زاغو التلمساني المتوفي 845هـ.
- الشرف الرهوني المتوفي 773 أو 775هـ...

وتجمع المصادر على تأليف ابن إدريس في مواضيع، منها تعاليق على البيوع. وشرح إبن الحاجب، بالرغم من أن فقه ابن **الحاجب** لم يدخل المغرب الأعلى يد أبي على ناصر الدين منصور المشد إلى الزواوي المتوفي 731هـ حسب إبن خلدون

ما يضيف فائدة لترجمة أحمد بن إدريس، هي بلوغه مرتبة التصنيف التي تتطلب مرحلة البلوغ عادة، إياه مقامه ببجاية وأخذه ابن الحاجب على أبي علي ناصر الدين.

ويتجلى لنا أن أبا العباس ابن إدريس من الذين نشروا إبن الحاجب في المغرب

وزواوة على الخصوص بعد 731هـ وربما انفرد بذلك حتى أفتك أهلية تأسيس زاوية بعد إنسحابه عن بجاية 761هـ...

غير أن الذين ترجموا للرجل لم يولوا هذه اللمحة نفس الأهمية التي أوتوها حكاية الإستشفاء بالرقية (الفاتحة) وقد مارسها إبن إدريس على طالب مصاب فشفاه الله، وكان أحد طلبته قد خاب مسعاه حين جرب الفاتحة على مريض آخر، فعاد لشيخه سائلاً متعجباً؟ وأجابه شيخه: هذه الفاتحة... وأين قلب إبن إدريس؟... (وما أحوجنا إلى العمل والعلم بالقلوب (الإدريسية) لابا لشفاه والأهواء حتى تأتي الشفاعة ويحل الشفاء بنا جميعا... ولعلنا ندرك بسرد هذه الحكاية السرَّ الكامن في جذب معهد **ابن إدريس وضريحه بإيلوله** للزوار القصر والمصابين بمختلف الأمراض النفسية حتى يومنا هذا...

أحمد ابن إدريس ببجاية وتونس ومصر:

- إننا لا نكاد نستوفي الكثير من جوانب حياة إمام المغرب، صاحب أول معهد علمي إسلامي بزواوة (زاوية) بعد عصر بجاية وبعد مؤسسة المكتب التي درس فيها الغبريني في 650هـ. ثم معمرة أبي الحسن علي بن محمد اليتورغي (علي تغالاط) وأخيه علي الكوسيمي، قبل 683هـ وحول إبن إدريس **مفتي بجاية** وكبير علمائها فظل مدينين لإبن خلدون وللرواية المحلية المدعية بالعينات والآثار المادية في كل من زواوة وبجاية وهي كلها ذات مرجعية وموثوقية، طالما مورس عليها الطمس إثر سكوت غير بريء في كثير من المواطن والأحقاب...

لقد انفرد ابن خلدون بتغطية أكثر من عشرية كاملة من حياة شيخه الزاهرة بجلائل الأعمال والأحداث، عكست كلها صفحات من التطاحن الأحمق بين بني مرين وبني حفص وبني زيان وبينهم جميعا وبين القبائل والزعماء في زواوة والدواودة وجموع صنهاجة والأعراج. وقد طفت على مسرح الأحداث في عهد المريني مند 737هـ بسقوط تلمسان، فبجاية وتونس، ولم تنته بموته طريدا منبوذا في جبل المصاهرة سنة 752هـ بل استمرت أطول من ثلاثين سنة.

وخلال هذه الأحداث الجسام سطعت معالم في حياة ابن إدريس وعلماء بجاية وزواوة سجَّلها إخباريون ومصنفون أمثال عبد الرحمن ابن خلدون وأبي عبد

الله ابن مرزوق الرئيس والمقري أحمد..

ولقد كان أول إتصال لابن خلدون بالمريني وبشيخه ابن إدريس في **تونس** الخاضعة، ثم سجل كل الأحداث المريعة بها حتى واقعة الزوبعة البحرية التي دمرت ما بقي في الأسطول والأمل لدى المريني، فيما بين شاطئ (تيقزيرت ودلس) لينجوا بتدخل بعض الجفن إلى الجزائر وهلك غالبية العلماء وحرم السلطـــان ، فأي الأقدار تكون تلك. أهي أقدار بجاية أم إبن إدريس أم إفريقية والمريني وابن خلدون..!

إنها أقدار البلاد والعباد في الربوع البجائية والمغربية، وفي المقدمة أحمد ابن إدريس شيخ الفتيا ببجاية وأبو المؤسسات التعليمية بزواوة، ومع أن ابن خلدون قد مسه أذى في كل هذه التحولات، فلم يذكر شيخه صراحة من بين علماء المجلس العلمي 400 على أسطول المريني في (732 / 752) إلاّ أن المعلومات التي جاء بها بشأنه تكاد تكون المرجع الوحيد، رغم السكوت عن شيخه حتى عند عودته الثانية إلى بجاية (حاجبا) وارتياده بلاد زواوة أو بعد 784 وهو قاصدا حجَّ بيت الله الحرام، وأثناء حديثه عن القاهرة حيث قال: «ومازلنا نتحدث بهذا البلد ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحـديث عنـه. وهكذا يستدل بتعبيره، مازلنا نتحدث بهذا البلد المعطوف على قوله «ومررت في سكك المدينة... وأسواقها... ومازلنا نتحدث..» وينتج عن قراءتنا لهذا النص (متى كان هذا) بصريح النص 784هـ وهي كلها تشرح بقية الظروف... مازلنا نتحدث، ولقد اختلفت عبارات.. حاجهم... ما يوحي بتواجد أحمد ابن إدريس حاجا بالقاهرة في هذه الفترة... فإن ما سجل الرجل هنا كاف للدلالة على أن شيخه كان حيا في 784هـ لأن رجلا كابن خلدون لا يخفى عليه أن يسجل الوفاة لو حصلت بالفعل ولو بتعبير أخلاقي (رحمه الله)، وأنه لن يبخل عنا بأدق الأمور، كما فعل مع صاحبه أبي القاسم البرجي سفير السلطان لملك مصر، مجلس منصرفه من السفارة سنة 756هـ، ولا يتصور عاقل أن يُفَصِّل في ذكر الشيخ البرجي وسفارته. فهي حين يكتفي بمجرد الذكر بسؤال شيخه أبي العباس ابن إدريس، لو حدث ما يستلزم التخصيص.

عصر بجاية:

حوادث بجاية عهد ابن إدريس لم تكن قصيرة العمر، فقد توالت الهزات والثوراة منذ 747هـ، عكس ما يذكره ابن مرزوق تماماً، عندما اكتفى بتسجيل أن علماء بجاية هم الذين تولوا تسليم المريني مفاتيح المدينة[7]. وهو أيضا يسكت عن أحمد ابن إدريس وصحبه، وعن محاولة تمرد وحدثت داخل صفوف السلطان، ردّدها ابن خلدون لمجرد الذكر.

وقائع عاشها أحمد ابن إدريس واكتوى بنيران بعضها، وخصوصا تلك التي تسبب فيها موقف الأمير الحفصي أبي عبد الله، عند تخليه عنها، كتابيا، وبإشهاد للأعيان والعلماء، ومنهم مفتي بجاية، لصالح أبي عنان سنة 753هـ[6].

حادثة كهذه ما كانت لتمر دون رد فعل مثير للبجائيين، فكانت الثورة على عامل المريني (عمر ابن علي الوطاسي)، ثم ثار آخرون بقيادة العلماء ودعوا عامل صاحب قسنطينة إلى المسجد ولكنه لاذ بدار الفتيا لأبي العباس إبن إدريس، فاقتحموا عليه الدار، وظعنوه ليلقوا به من على سقف الدار.. هكذا عند ابن خلدون...[6] وإنها للفتنة الكبرى أو أشد...!

استمرت الاضطرابات بين الطوائف والجماعات، من الموالين للموحدين الحفصيين، والمناصرين لصاحب قسنطينة وتونس والخاضعين لأمل إحياء المغرب الإسلامي في الموحد، ومن الذين أثروا الشخصية البجائية إزاء كل التيارات.. كانت فتنة كبرى، سجل فيها ابن خلدون عن قرب واحتكاك، وهو المقيم بها تحت هذه الظروف، مثل شيخه تماماً، وقد صرح بتعابيره بهذا التواجد وانتظر شهرين عودة الهدوء واستتباب الأوضاع لبني مرين.

تلك السمة المتعارفة بين زوايا زواوة، حتى في عهد الفكون وهو الذي يقر «أن زواوة تشد إليها الرحال لدراسة القراآت التي تختص بها أهم زواياها» في أوائل القرن 11هـ حوالي 1010هـ / 1602م وإن كانت أولاها هي (معمرة على تفالاط) ببني يتورغ التي ذكرها كل من ابن علي الشريف ومحمد بن عميره ومنذ النصف الثاني من القرن 7هـ..

لقد شهد عصر الفكون ميلاد زوايا كثيرة، منها زاوية آل الموهوب بأمالو ثم تيفريت آيت أوماكل ثم زاوية امحمد بن عثمان البتروني وهي فيما بين 1010هـ

ظاهرة الزوايا الحضارية:

ثم توالى تأسيس الزوايا وتتابع بعد العصر اليحائي فبرزت زاوية يحي العيدلي ثم زوايا تلامذته على بن موسى وبهلول بن عاصم الصغير بعزازقة، خلال القرن 9 و10هـ. تماما مثل زاوية لسيدي عمر بن الحاج وأخيه محمد بن الحاج وزاوية سيدي عبد الرحمن اليلوني وعلى بن الطالب خلال الحادي عشر والسابع عشر ميلادي[10](

ومع هذه النتف الشحيحة يظل موضوع التعليم والزوايا بزواوة من المواضيع التي ما تفتأ ترقب كشف غامضها وفك عقالها ورُموزها، على غرار ما فعله الفاضل ابن زكري بزاوية عبد الرحمن البلوي.

(عهد (محمد بن أبي عمر التميمي) الموظف بمرسى دلس والقل قبله، وهو الذي جمع مشائخ بجاية في محرم سنة 754هـ، كما جمع صنهاجة واعتقل منهم (هلال) عريفهم، وخلع على الأشياخ، واقتص من 200 متمرد من الغوغاء.

ومع كل ما ذكره صاحب كتاب العبر، يشتد تأرقنا لهفا إلى معرفة موقع ابن إدريس من هذه الأحداث، كموقفه تماما منها، عندما استبيحت داره كما عرضها ابن خلدون كمجرد حدث. وهو الذي لم يعودنا غير غير العمق والمرجعية الضبط والتحليل من الرواية والمشاهدة بعين ناقدة غالبا، وبأسلوب الأخذ بالوجوه المتعددة للرواية بكل ما تقتضيه من الحكم والتجريح والترجيح...

كلها أسئلة نبتهل بها رجاء أن نُسعف لما يروي القليل من أجل إكمال الصورة، حتى لا تبقى جهداً من منطق (القضاء).. فأحمد ابن إدريس، صاحب أول معهد ثانوي بعد عصر بجاية البراق، وهو فوق ما تقدم من الرواد الأوائل، كوالده وأعمامه بمائة سنة روّاد رسالة التربية والتعليم بالربوع الايلولية بعد (759 ـ 760هـ)

أحمد ابن إدريس بأيلولة:

كان من شأن الأحداث المتلاحقة السالفة الذكر ببجاية أن تحدث الرعب والهجران، رحيلا إلى الجبال الآمنة لزواوة، نجاة بالنفس والعلم والدين والمال والآل.

فكان عصر زواوة المشع منذ النصف الثاني من القرن 8هـ، منذ نزوح أبي العباس ابن إدريس وغيره إلى إيلولة أومالوا ويؤسس (معهد ابن إدريس) بها بعد

761هـ وحسب الرواية المحلية كان مقامه الأول بعد الأوبة بقرية أقوسيم الحالية، عند قرية مهجورة حاليا، بفعل الحرب بين القبائل الشرقية والايلوليين (بين اقشوشن وإيلولة) حسب ما سجله محمد بن عميره [1](وما كان استقراره بربوع إيلولة ليتم بدون حماية منهم ومن بني يعلى، عرف منهم (آيت علي أو محند) وبالأخص عائلة (إيواكوعان)... [2](

ورغم شهرة زاوية ابن إدريس عبر التاريخ، فإننا لا نملك عنها غير نتف وشهادات الطلاب، حول البرنامج وظريقة التدريس، وهي كلها تجمع على تخصص في علم القراءات السبع والعشرة، وعلى علوم اللغة والفقه... التي تمثل الاستمرار الطبيعي للزاوية الأدريسية، وفية للبرنامج الدراسي، والتسيير، وحتى المشايخ، يكاد ويجمع بينهم عامل المشاركة في التعليم والقيام على الزاويتين بالتداول.

ومع شهرة زاوية ابن إدريس مغربا ومشرقا. كمقصد طلاب العلم من الآفاق البعيدة، شهرة أهلتها لاحتلال مكانة لا تقل أهمية عن الزيتونة والقرويين، لولا العامل الجغرافي الذي طبعها بطابع التنسك والخلوة منذ آخر القرن 8هـ.

شيوخ معهد ابن إدريس:

حسب مخطوط عمود النسب كانت بمثابة زاوية الأسرة دراسة وتدريسا بها، منذ الجد الأول سيدي (يونُس الزلاجي) إلى صاحب العمود. وإذا كان عبد الرحمن الوغليسي تلميذ أحمد ابن إدريس في بجاية فإن يحي العيدلي قد تتلمذ في زاويته، وهو من مشاهير القرن التاسع ببني عيدل، ومثله أحمد ابن إبراهيم النازح من بجاية إلى قرية (هوبلي) بأزفون) عبر إيلولة، حيث يصحبه أتباع ومريدون وطلبة وحماة (جندواخوان) وكانت وفاته 840هـ.

تداول التدريس بالزاوية وربما الدراسة غير واحد من أسرة (الفاسي) الشهيرة، نخصُّ بالذكر منهم أشهرهم بزواوة (محمد الفاسي) المعروف (بسيوطي زمانه)، المتوفي في 1096هـ / 1688م. [12](.

كما أقام بها كل من أحمد السعدي الدّلسي وتلميذه عبد الرحمن اليلولي، صاحب المعهد المجاور بأقل من مائة متر، وهو يدوره ساح كثيرا في زواوة قبل

الإستقرار بإيلولة، فمن يني يعلى إلى بني ييراقن إلى مزرانة حيث تشهد عنات وآثار على مقامه بها كعين الماء وقبة تذكارية (مصلاة) أو خلوة كما يقال . وأهم الخلوات بإيلولة هي قمة (تيزيبرت) الجرداء، ومعناها (فج اللبؤات)... حيث يروى محليا انزواء الأربعة الصالحين للقرن 17م طلبة زاوية أحمد ابن إدريس ومنهم سيدي منصور الجنادي (المنيعي) المتوفي 1645م.

ومن الشيوخ المشهود مُرورهم بزواوة دارسن أو مدرسين، الشيخ أحمد بن عبد العظيم الدفين بجوار محمد بن الموهوب بأمالو ، وربما لإمام الزيتوني لأجل عبد الرحمن الخليفوني المتوفي بها سنة 1142هـ /1729م حسب إحدى الوثائق الإدارية التركية لآل إبراهيمي في كوكو ... زاوية على بن الطالب بها وهي الإشعاع الديني والتصوفي والسياسي بزواوة منذ القرن 17م عهد الامارة القاضوية الشهيرة وعهد وليها علي والطالب الذي كان حيا في 1632م وربما تكون وفاته بعد 1693هـ 1693م حسب البلاطة التنكارية التي حصلنا على نص منها.

التعليم الزاوي بزواوة:

الجدير بالتسجيل هو أن التعليم بالزاوية مرتبط كل الإرتباط بشخصية الشيخ المتدب، وبسمعته العلمية وكفاءته، وبالرغم من الفترة المنسوبة للمشيخة، فإن بعض الشيوخ قد تتجاوز إقامتهم بها أربعين سنة.

وشهرة زواوة وزواياها بالقراآت السبع والعشر هي التي أوحت لأحد المشائخ برجز كتاب كامل في القراآت، تسهيلا للحفظ الشائد في الزوايا، واشتهر (ابن مفزع) في كامل زواوة والمغرب وهو (لابن بري) رَجَزَ كتابه (المجدادي) السلاوي حسب المخطوط ـ وسماه مختصر (كتاب الدرر اللوامح) وفي 22 صفحة اشتملت على 19 بابا وفي المواضيع المختلفة في الرسم والالقاء والسكون والترخيم وغيرها.

ونحن بصدد ذكر المشائخ لابد من تحقيق ما ورد في ترجيم محمد بن عمر الهواري (الوهراني) المتوفي سنة 843هـ حيث ذكِرَت دراسته علن أحمد ابن إدريس (الوانغيلي) وعبد الرحمن الوغليسي

وهنا لا يمكن المرور دون إلقاء بعض التنبيهات، استعجاليا بلفت الإنتباه، رجاء رفع اللّبس. وأولاها هي المصطلح الوارد في مختلف الكتب مثل شجرة النور

الزكية، والجزائر الثقافي للدكتور سعد الله وهو (كنية) أحمد ابن إدريس الوانغيلي، أو الوانقيلي أو (الوانجيلي)، أول لقب يرد لابن إدريس، والونغيلي أسرة شهيرة بفاس من علمائها (الوانغيلي) مفتي فاس المتوفي 779هـ حسب درة الحجال لابن القاضي.

وثاني تنبيه يتعلق بدراسة الهواري على أحمد ابن إدريس علماً بأن الفارق الرفاني بين الاثنين كبير، فالأول توفي في 843هـ والثاني فقدنا أخباره بعد 761هـ وما بين التاريخين ثمانون سنة ، فكيف يدرس الهواري إذن على أحمد ابن إدريس ويقيم ببجاية أو زواوة 14 سنة ، علي بأن فترة ما بعد 761 هي عهد معهد ابن إدريس الأيلولي، ونحن نعتقد أن الهواري الذي أقام بها 14 سنة درس فقط في زاوية ابن إدريس وهو الأصح والأرجح، إلا إذا امتدت عمر ابن إدريس إلى ما بعد 780هـ.

وثالث تنبيه يتصل بالولي سيد أحمد بن يوسف دفين مليانة فهو أيضا أقام بزواوة ودرس بالزاوية كما تزوّج وخلّف ذرية كثيرة هي حاليا تمثل قرية (آيت أحمد بن يوسف) لدى زوخفاوة . ولكننا لا نفرق موقع الزاوية البترونية أو المنجلاتية التي أسسها بن يوسف فهل هي مقام لسيدي المنجلاتي الحالي، أو زاوية سيدي أحمد أو معلم، فلا نعرف زوايا أخرى بهذه الربوع قبل 1537م تاريخ وفاة بن يوسف.

الظاهرة المزاوية:

وفي مستهل الفترة الحديثة من القرن 17م شهدت زواوة وأيلولة ميلاد (معاهد زوايا) بشكل سائر إلى أن تؤسس كل عائلة مرابطية زاويتها، في تنافس ورع وسباق محموم.

ومنذ تأسيس زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي المصباحي الخردوشي المتوفي 1105هـ ـ 1693م وهي متصلة الجناح بمعهد ابن إدريس حيث تقام صلاة الجمعة، ولا تقام أبدا بالزاوية الناشئة، ما يرمز لقضية الولاء والوفاء بين الزوايا وبين المشائخ...

إن حدث كان من شأنه أن حوّل عبد الرحمن اليلولي إلى صباح ومعهد ابن

إدريس إلى مصباح، حسب تعبير الشيخ أحمد السعدي الدلسي وما بين المصباح والصباح ظل التنافس قائما بين طلبتي الزاويتين قيام النفس في الروح يشرق الحياة لكل كائن. ورغم الإختلاف الهام في القانون والإنتساب والتسيير والبرنامج فكلاهما مكملة للأخرى بحكم التضامن ووحدة الرسالة والضغوط بالمحيط.

فزاوية أحمد ابن إدريس تعتمد التسيير الذاتي للطلبة المرهون لمجلس من أعيان أيلولة، بينما تكتفي الزاوية الفتية بمجلس طلابي ميادم الأشغال والوقوف على شؤون المعهد. إلى جانب لجنة من عقلاء الطلبة القدماء تستدعي فقط عند الضرورة التي تكتسي خطورة اتخاذ القرار. وإذا كان طلبة سيدي عبد الرحمن يختارون مشائخهم، وينهون مهامهم دون ضغط أو وصاية، عدا الاستشارة للشيوخ والطلبة الأقدم. فإن معهد ابن إدريس يحُدُّ من صلاحيات لجنة الطلاب، ولا تفويض لهم باختيار أو خلع الشيوخ، بل أن أحداثا ووقائع تسجل صراعات وانقسامات أحاطت ببعض الشيوخ من مختلف العهود، لا سيما القرن 19 و20. صراعات عنيفة جذبت أنصارا ومريدين وتكتلات متناصرة، استهدفت بعض الشيوخ خلعاً أو تعينا، ومصدرها دائما هو الهيآت المدنية المحلية للتسيير، ربما لم تكن تسمو إلى التميز بين الذاتية والولاء والصالح العام. وهذا ما شكل وجه الخلاف السلبي عن العهد المجاور، كما مثل دوماً مناخا ميسِّرا لنمو بعض الطفيلات كانت دوما سيَّاقة إلى التجاوزات وبعض الإنحرافات من (الهيآت المدنية) من الموالية للسلفة والمناهضة لها. وقد حدثت اعتداءات مثل الذي تعرَّض له الشيخ الهادي حسب الورتلاني قبل 1765م[2].

القانون بالزوايا:

ومن وجوه الاختلاف بين الزاويتين ما يكمن في قانون الانتساب ففي معهد ابن إدريس يقبل كل من يحتمي بها ويلوذ بحرمها، وهي أشبه ما تكون بالزاوية الصوفية (الطرقية) ينطوي تحت لوائها الإخوان والمريدون من مختلف الأعمار، مؤقتا أو موسميا أم دائما، لإقامة الشعائر الطرقية، وإحياء حفلات الذكر وفق طقوس تصحبها مظاهر المدائح العلانية الغنائية والراقصة، حتى يومنا هذا...

إلى جانب المتقدم ذكرهم يوجد فريق الطلبة في القداديش والمقدمين ومختلف المراتب والمستويات أعماراً أو تحصيلاً.. وهم يخضعون لنفس القانون السيد في زاوية المحاورة. يكلفون بكل المهام، وفي مقدمتها جمع أرزاق الزاوية من القبائل

الشرقية حتى البرج لدى مجانة، حبوبا وزيتا وتينا وأخلاقاً.

وفي مواسم الشيخ والمسغبة تدعم المخازن (بالشحاتة) لدى القرن في أيلولة وخارجها، وهي الظاهرة المشتركة بين كل الزوايا، وهي أن توفد زمرة من (القداديش) لقرية من أجل تحصيل هبات الموسورين وصدقات أولى البرّ وذلك بحسب المواسم.

فميزة ابن إدريس ازاء الزاوية الجارة هي أنها تقبل كل انتساب دون شرط السّن أو أي شرط مسبق، وتجمع بين الطلبة وبين (الاخوان) فهي أشبه بالزاوية السنوسية والتيجانية ومختلف خوانق الصحراء التي تجمع جيشا من طلبة العلم وآخر من الزوار والمريدين، عابري سبيل كالقوافل، أم هم مقيمون بها أو حواليها، وهم فئة (الاخوان) أتباع الطريقة، ولا يوجد نظام ذي حصانة حيث يتواجد هذا الحشد الغير متجانس، مهما كانت صرامة القانون إلى حدّ الجلد والنبذ بعد التغديم والسخرة وغيرها.

ولا غرابة في ان تقع بعض التجاوزات الفردية، ييسّر وقوعها ردود فعل عامة (حالات التجنيد والتسلح) دفاعا، دائما وليست هجوما واعتداء، أبداً... [3] (وغالبا ما تنتج عن النزاع حول الاوقاف والأحباس أو حيوانات الزوايا. وبالخصوص الأملاك التي هي عرضة للسطو والإلحاق من الجبارين أو من الشخصيات الدّولية.. وهو ما تعرضت له الزوايا وما تزال..

هذه الوقائع العادية، هي التي استغلتها بعض الأوساط، بما فيها السلطة، فرنسية كانت أم تركية، وألحقت تشويها ومسخا بمعهد ابن إدريس وطلبته (طلبة الديوز) وهي ظاهرة ليست خاصة بها، بل شائعة في كل الزوايا، كلما تطلب الفصاء التلاحم والتضحية، دفاعاً عن حرمات الزاوية وأملاكها، وعن أبنائها وحقوقها في وجه أي معتمد كان...؟

الدور الظلائعي للزاوية الإدريسية:

إنها القطرات التي أفتلها الإستعمار، وأوقدها بزيت الجهلة والأحلاف والحزم بالجحان، ينسج جملة شعواء حول معهد ابن إدريس و(طلبة الديوز)... أولئك الذين كانوا أوائل المجاهدين في أولى الثورات 1854 وفي ثورة 1871 كما في الثورة

الكبرى. واقع حَريٌّ بأن يؤهل الزاوية إلى رباط (معصوم) في الاستعمار لم يخضع ولم يعترف بغير سلطته والله وشريعته...

ولعل خير ما (تختم) به موضوعنا اضطراراً إنما هو تسجيل متعجل لمشائخ المعهد خلال العهود القريبة مثل الشيخ السعيد الزلالي ومحمد بن عميره، عدة مرات، وأرزقي أبو يعلي والد الشيخ محمد أمزيان، والطيب وعمارة، والشيخ العربي وعمارة (القمقوم) والشيخ محمد الطيب أعشابو، وآخرهم الذين قضى بها أكثر من 40 سنة، الرجل الذي وهب حياته، لمعهد ابن إدريس. والذي وفق في تثمير جليل للموارد والطاقات بالزاويتين، لضمان الاستمرار في قالب الإصلاح والتطوير إلى المعهد الإسلامي (عبد الرحمن اليلولي)... وإن لقليل من الكثير مما يجب أن يقال حول الرجل الصوفي الناسك الذي لا (خلق ولا سلف له فيْ الحياة) وأقل القليل مما نسديه له، هو ذكر جهاده ضدّ الظلال والإنحراف، وإحيائه معهدي ابن إدريس وعبد الرحمن اليلولي، بعد أن ربط الإستعمار بهما خيله وحميره وجنده، وأثر قنبلتهما جزاء للدور العلاني الذي مامتا به خلال الثورة الكبرى.

إنها كلمتنا عساها تترحم على شيخنا الحاج الذي وافته المنية ليترك (أطرفة رواتبه) مغلقة، وقفا على الزاويتين وطلبتهما. وقد كان عمره كله وقفا على خدمة زوايا زواوة شيخا وقيما إن المرحوم الحاج محمد السعيد البحري آخر دفين الزاوية المعهد...

المراجع المعتمدة:

(1) محمد بن عميرة، عمود الشب.

(2) محمد السعيد بن علي الشريف: الاستبصار بتفصيل الأزمان وتاريخ البوادي والأمصار.

(3) وثائق إدارية تركية ومراسلات وعينات مادية...

(4) ابن برى التازي 734هـ، الدرر اللوامح في أصل مقرئ الإمام نافع.

(5) أبو القاسم البوجليلي، التبصيرة في القرآن.

(6) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج 7، و1.

(7) ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في أخبار مولانا أبي الحسن.

(8) أبو العباس أحمد (المقري) نفح الطيب...

(9) أبو العباس احمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من على إلمائة السابعة ببجاية.

(10) الورتلاني الحسن: الرحلة الورتلانية.

(11) محمد السعيد ابن زكري: أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل...

(12) عبد الكريم (الفكون)، منشور الهداية، تقديم الدكتور سعد الله.

(13) الحاج صادوق... مليانة ووليها أحمد بن يوسف.

(14) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 1و 2.

(15) يحي بو عزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية.

(16) مخلوف محمد: شجرة النور الزكية. أحمند بن القاضي، أبي العباس أحمد محمد المكناسي.

(17) درة الحجال في أسحاء الرجال (ذيل وفيات الأعيان)

(18) محمد بوشغيب: أم الحواضر قسنطينة.

— السيد علي أمقران سحنوني مقال يحي العيدلي هذا الرجل المجهول. (مجلة التاريخ)